مجلّة روافد للبحوث و الدراسات / جامعة غرداية / العدد الثاني (2017م)
مجلّة روافد للبحوث و الدراسات
ردمد 2543-3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz

مقاومة الجزائريين لسياسة التوسع الاستعماري بالجنوب الشرقي للجزائر

1850-1918 – من خلال وثائق أرشيفية –

د. محمد بليل

جامعة ابن خلدون – تيارت

ملخص :

قامت القوات الفرنسية الغازية باحتلال الجزائر، و التوجه نحو الجنوب الجزائري الكبير بهدف التوسع على حساب أراضي الجزائريين و إقامة إمبراطورية استعمارية كبرى في إفريقيا ، في إطار المنافسة الاستعمارية مع بقية الدول الأوربية . إلا أن الجزائريين بهذه المناطق واجهوا فيالق الحملات العسكرية المتوجهة نحوهم بروح وطنية و دينية لوقف زحف هذه الحملات وتكبيدها خسائر فادحة رغم اختلال موازين القوى بين الطرفين، و استطاعوا تأخير وصول هذه القوات إلا في نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين، ما يثبت قوة تشبث الجزائريين بوطنهم و دينهم وهويتهم التاريخية تجاه عدو لا يرحم أحدا، ما حتم على الجزائريين الدفاع عن بلداتهم و مناطقهم بروح قتالية عالية، اعترفت بها تقارير و مراسلات قادة الحملات العسكرية لمسؤوليهم لدى الحكومة العامة في الجزائر و حكومة المتربول بباريس. و لهذا الغرض سوف نحاول الإجابة على إشكالية هذه الورقة البحثية، المتمثلة في تحدي الجزائريين لسياسة التوسع الاستعماري بالجنوب الشرقي الجزائري، انطلاقا من واحات الزعاطشة إلى منطقة الأهقار التي استعصت على الجيش الفرنسي و قادته العسكريين إلا في بداية القرن العشرين، ممن خلال قراءتنا لعينات من و وثائق أرشفية متعلقة بتقارير لضباط عسكريين و مسؤولين عن مهام التوغل بالجنوب الجزائري الكبير ، تبين لنا جزء هاما من الحقيقة التاريخية حول الصراع بين الجزائريين و السلطة الاستعمارية المحتلة للجزائر وفق معطيات محلية و دولية ، إذ كان الجنوب الجزائري يندرج في إطار مسعى الاستعمار الفرنسي لربط شمال الجزائر بالسودان الغربي وتأسيس إمبراطورية فرنسية كبرى بهذه المناطق .

Résumé

Les troupes d'invasion françaises occupèrent l'Algérie, dirigeons vers le grand sud algérien dont le but de faire l'extension dans le territoire des Algériens et la création d'un empire colonial majeur en Afrique, dans le cadre de la concurrence coloniale avec les pays européens

Cependant , les Algériens dans ces régions ont opposés les campagnes militaires dirigeaient vers eux avec un esprit nationale et religieuse pour arrêter l'avancement de ces campagnes qui ont obtenu des pertes importantes, malgré le déséquilibre des forces entre les deux parties, et ont réussi à retarder l'arrivée de ces force jusqu'a à la fin du XIXe siècle et au début du XXe siècle, et cela nous prouve que les Algériens se sont liées a leur religion et leur identité historique face a un ennemi impitoyable envers quiconque, ce qui a nécessité les Algériens à défendre leurs villes et leurs zones avec un esprit combativité élevés, reconnus par les rapports et les correspondance des dirigeants des campagnes militaires a leurs représentants du gouvernement général de l'Algérie et le gouvernement du métropole a Paris . Et pour cette raison , nous allons essayer de répondre au problématique de cette intervention ; le défi des algériens a la politique de l'expansion coloniale dans le sud-est de l'Algérie, des oasis Azaatcha jusqu'a la région des monts du Hoggar qui a défié l'armée française et ses commandants militaires, qu' au début du XXe siècle ,d'après d'une lecture des échantillons de documents d'Archives , liées aux rapports des officiers militaires et de responsables des tâches de pénétration dans le grand sud algérien, qui nous indique une partie importante de la vérité historique sur le conflit des Algériens avec la puissance coloniale qui occupé L'Algérie, selon des données locales et internationales, comme ce fut le sud Algérien qu'une partie d'un effort de la colonisation française à relier le Nord d'Algérie avec le Soudan Ouest et la création d'un vaste empire français dans ces régions .

مقدمة:

ظلّت الصحراء الكبرى بعيدة عن متناول القوى الاستعمارية الكبرى، بسبب انشغالها بالصراع فيما بينها من أجل مناطق النفوذ في أسيا و إفريقيا جنوب الصحراء ، لكنها انتبهت إلى أهمية هذه الرقعة الجغرافية التي تشكل الصحراء الجزائرية جزءا مهما منها ، إضافة إلى أنها تشكل حلقة وصل هامة بينها و بين المستعمرات الفرنسية جنوب الصحراء الجزائرية .

و لهذه الغاية اشتدت حمى التنافس الاستعماري بين القوى الأوربية الكبرى في نهاية القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر ، بعدما حسمت هذه الدول الاستعمارية قرارها ،بضرورة الانتهاء من استعمار القارة الإفريقية كاملة ، حيث استغلت فرنسا الظروف الدولية و الداخلية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية وولاياتها بالمشرق و المغرب الإسلاميين لتحاول احتلال بوابة إفريقيا ، المتمثلة في الجزائر المحروسة سنة 1830، وكانت فرنسا الاستعمارية تهدف من وراء غزوها للجزائر ،استكمال مشروعها الاستعماري ،بتوجهها نحو الصحراء الجزائرية الشاسعة.

و أصرّ قادتها العسكريون المؤيدون للغزو الشامل [1] على إنجاز مشروعها الاستعماري الكبير في عهد مهندس بناء الإمبراطورية الفرنسية "جول فيري" الذي كان يرى الأهمية القصوى في ضرورة ربط الصحراء الجزائرية بمستعمراتها الإفريقية [2]، حيث عثرنا في زيارتنا العلمية لمركز الأرشيف في ما وراء البحر بإكس بروفانس والمصلحة التاريخية للجيش البري الفرنسي بفنسان بفرنسا على علب أرشيفية كشفت لنا تقاريرها عن معطيات الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية ، و مقاومة سكان هذه الأقاليم لسياسة التوسع ومواجهتهم لقادة الحملات العسكرية بروح وطنية عالية من خلال مراسلات وتقارير هؤلاء الضباط العسكريين أنفسهم ،الذين كتبوا تقارير عن مسيراتهم و مقتل بعضهم من خلال الأخبار الواردة في صحافة فرنسا الاستعمارية، و قد أفادتنا هذه المادة الإخبارية بالسياسة الواضحة لسياسة التوسع الفرنسي في جنوبنا الكبير ومنطقة أقصى الجنوب الشرقي للجزائر مع تحفظاتنا على

المبالغة في سرعة اختراق الصحراء الجزائرية و الحرب النفسية المسلطة على ساكنة هذه الفيافي الكبيرة .

و في إطار قراءتنا المتواضعة لما ورد في هذه التقارير الأرشيفية، سوف نعالج إشكالية الاهتمام الفرنسي بالمنطقة و محاولات فرنسا بناء امبراطورية استعمارية كبرى بإفريقيا و مسيرة الحملات الفرنسية و ومقاومة الجزائريين لهذا التوغل الفرنسي بالجنوب الشرقي للجزائر من خلال ثورات سكان المنطقة و تعاونهم مع الحركة السنوسية بالجنوب الليبي، لرفض السيطرة الاستعمارية، و ذلك من أجل استخلاص نتائج هذا الاحتلال و انعكاساته على شعوب المنطقة ، هذه الأخيرة التي لم تستكن لهذا الغزو الاستعماري و واجهته بوسائلها الخاصة من خلال تأخير احتلال المنطقة إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الأولى.

1-الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية:

احتلت فرنسا الجزائر في الخامس جويلية 1830م ، بعد حصار طويل لمدينة الجزائر و توقيع وثيقة الاستسلام بين الداي حسين و حاكم الجزائر ، بعد ما تمكنت الجيوش الفرنسية بقياد قائد الحملة الفرنسية " دي بورمونت De Bourmont [3] من اختراق دفاعات الأسطول الجزائري بسطاولي واحتلال حصن الإمبراطور وهزيمة الجيش البري للداي بسبب أخطاء صهره إبراهيم أغا ، مما نتج عنه دخول القوات الغازية للجزائر و احتلال القصبة ، حيث بدأ قادتها و حكامها العامون يفكرون في التوغل إلى عمق الجزائر، المتمثل في جنوبها الكبير من أجل القضاء على انتفاضات الجزائريين ،التي كانت تجد في المناطق الداخلية و الجنوبية ملجأً أمينا للمجاهدين و ثوارها ، و قد كشفت لنا التقارير و اخباريات التوسع لفيالق الجيوش الفرنسية أهمية الصحراء الجزائرية بالنسبة للسياسة الاستعمارية جغرافيا و اقتصاديا وسياسيا .

أ- الإطار الجغرافي و البشري للمنطقة :

فسرت لنا العديد من الدراسات الجغرافية و التاريخية و العلمية ، أهمية الصحراء الكبرى الجزائرية و الإفريقية ، وأبرز أدوارها الحضارية من خلال المعاينات الميدانية و الرحلات الاستكشافية من عسكريين فرنسيين و مغامرين فرنسيين ، اخترقوا الصحراء بغية أهداف استعمارية و دواعي علمية حسب آخرين و كانت أولى تلك الاحتكاكات بالصحراء الجزائرية في بداية الاحتلال ،حملة الجنرال كافينياك حسب ما يذكر الدكتور فليكس جاكو Félix Jacquot(4) في مذكراته حول البعثة الصحراوية ، حيث ذكر بأن هذه الرحلته، تمخض عنها دراسات علمية حول اكتشاف بوابة الصحراء، موضحا مدى استفادته من الدراسات السابقة للمستكشفين الأوربيين الإنجليز و الألمان ثمّ الفرنسيين.

بينما تطرقت دراسات أخرى بشكل مفصل للمعطيات الطبيعية للبيئية الصحراوية التي تتميز بمظاهر تضاريسية ومناخية مشتركة ،حيث وضحت لنا تقارير الصحفيين الفرنسيين، إضافة لتقارير ضباط الحملات العسكرية المختلفة ، المرسلة للحاكم العام في الجزائر و وزير الحربية الفرنسي ، حول إنجاز دراسات متخصصة لهذه الصحراء الكبرى المترامية الاطراف ، من أجل وضع تصور مستقبلي لمرور القوات الفرنسية و حماية القوافل التجارية و بسط السيادة الفرنسية على مناطق الهقار و التاسيلي وربطها بالمستعمرات الفرنسية بالسودان الغربي؛و مراقبة تحرك القوات الاستعمارية الأخرى بالسودان الشرقي و ليبيا، في ظلّ المنافسة الاستعمارية ، من خلال بناء أبراج المراقبة و التفاوض مع القبائل الصحراوية النشيطة في الجنوب الجزائري، بهدف إخضاعها أو اتقاء شر هجماتها (5) .

و قد وصفت العديد من الدراسات المعاصرة ، المعالم الجغرافية بمختلف مظاهرها الطبيعية موضحة (6)، أنّ الصحراء الكبرى تغطي مساحة الثمانية ملايين كيلومتر مربع و تشترك فيها دول عديدة ، كدول الساحل الإفريقي جنوب الصحراء و بلدان المغرب العربي الكبير، و هي عبارة عن مناطق واسعة بها أراضي صالحة للزراعة ، تتواجد بها العيون و الآبار و الأشجار المثمرة كالنخيل و أيضا مجموعة من

القفار الواسعة الجافة الرملية التي تسقط بها أحيانا بعض الأمطار و تخترقها بعض الأودية شبه الجافة التي تحدث أحيانا بعض الفيضانات المفاجئة.

و وصف لنا أحد الضباط الفرنسيين [7] هذه الصحراء ، خصائصها الطبيعية بشكل مفصل من حيث سهولها المتمثلة في الرق ، الصالحة للمواصلات و الكثبان الرملية المتمثلة في العرق، حيث يجد نوعين منها في شرق و غرب الصحراء الجزائرية ، و لذلك نستخلص من هذه الدراسات ، أن الصحراء الجزائرية تمثل جزءا هاما من هذا الفضاء الطبيعي الواسع ، الذي يمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا، بها مظاهر تضاريسية متنوعة كالسهول المنخفضة و الرملية و الهضاب الصحراوية (تادمايت) و المرتفعات القديمة (الطاسلي و الأهقار و التبستي) ، ومناخها جاف حار و بها أودية شبه جافة و غطاء نباتي ضئيل و ثروة حيوانية أليفة كالجمال و أخرى متوحشة كالغزلان و الذئاب والطيور [8] .

و تتميز الصحراء الجزائرية بكبر مساحتها مقارنة بدول الساحل الإفريقي و لها حدود مع العديد من هذه الدول وتتميز أيضا بطابعها الجبلي من خلال وجود جبال الهقار ذات البنية البركانية و القمم العالية، القاتمة اللون و التي تحدها مناطق جغرافية صحراوية أخرى في الجزائر منها "تديكيلت و عين صالح في الشمال الغربي ومرتفعات الطاسيلي وجنات في الشمال الشرقي و منطقة تنزروفت غربا وعين قزام جنوبا [9].

أما من الناحية الديموغرافية، فالصحراء الكبرى تتميز بخصائص متعددة [10]، أبرزها التركيبة القبلية المتنوعة ما بين السكان الأصليين المتواجدين بالمنطقة المعروفين تاريخيا بالبربر أو الأمازيغ من قبائل متعددة أبرزها صنهاجة الجنوب و زناتة اللتان تصارعتا حول المراعي ، سكنت الواحات و بنت المدن و القرى بإقليم توات وفروعه بتديليكت و تيمون و تمنطيط و أدرار و أيضا واحات بوسعادة والزيبان وبسكرة و الأغواط و توقرت و واد الساورة ، و تميز أقصى الجنوب الجزائري بوجود السكان الطوارق الذين تميزوا عن غيرهم من سكان الصحراء الذين عرفوا بالملثمين[11]، حيث اتفقت الكثير من المصادر و المراجع على أصولهم الأمازيغية المنسجمة مع عادات و تقاليد سكان الصحراء العرب [12] .

وركّز أحد التقارير الصحفية الفرنسية على الدراسة الديموغرافية ، عن أبرز قبائلهم وتشكيلاتهم و عدد سكانهم وصنفهم إلى مجموعات رئيسية كالأتي [13]:

- البربر أو الأمازيغ حول إقليم الهقار - قبائل التبو بتبستي (تشاد وليبيا)- وأيضا قبائل بوركو بتبستي ، و يذكر التقرير أنّ هذه الأخيرة من أصول عربية بسبب تمتعهم بالروح الاستقلالية ،فلا يخضعون إلا لقادتهم المباشرين أو للسلطة الاستعمارية بواسطة القوة، يمتهنون حرفة الرعي و تربية الجمال و كان عدد السكان حسب نفس التقرير الصحفي 60 ألف نسمة و تواجدوا بمواقع مميزة منها ، "أداردوتشي" Adardoutchi و دومرقو Domergou وتسكن كل قبيلة خيامها بشكل جماعي والاستقرار مع جمالهم حول آبار المياه في مناطق محددة ، و أبرز تجمعاتهم حسب **الأهل** التي تعني في لغتهم "**كال**":

- كال آجارAjjer و كال أهقارAhgar و يتواجد هذان الصنفان بالشمال شرقي للطاسيلي وغرب الهقار

- كال أييرAIR و كال أيوليدان Kel Aouellimiden، و يتمركزان بالجنوب من تشاد شرقا إلى تومبوكتو غربا .

و وصف لنا التقرير السابق تصرفاتهم و صفاتهم و دور المرآة التارقية و تحررها و طبقاتهم الاجتماعية من أشراف البربر و التابعين من نفس الجنس و الخاضعين لهم "كالبلاح" les Bellahs من الهاوسا في غرب إفريقيا منهم الحدادون و العبيد وغيرهم .و واصل نفس التقرير ،ذكر أهم حواضرهم كتومبوكتو و غدامس وآقاديس و تامنغاست،ولذلك نعتقد أن الإدارة الاستعمارية حاولت التأثير عليهم من أجل إخضاعهم للسيطرة الفرنسية ، فقامت بإعداد دراسات عديدة حول أصولهم و حضارتهم عبر التاريخ من أجل بسط سيادتها على جنوبنا الكبير و فصلته عن الشمال الجزائري وفق" مرسوم قانوني لسنة 1902" [14] .

و بالتالي تناول هذا التقرير الصحفي بشكل شامل الماضي التاريخي و التطور الديموغرافي لسكان الصحراء الجزائرية ، إضافة للخصائص الحضارية التي يتميز بها

أقصى الجنوب الجزائري الذي عرف حضارات عبر التاريخ من خلال الشواهد الأثرية [15]، و يبدو أن هذا التقرير الصحفي قد تأثر بالدراسات الاستكشافية ، التي حاولت تبرير غزو الصحراء و حماية الطوارق من العرب و زرع الفتنة الإثنية بين سكان الصحراء ، رغم أن المسلمين الفاتحين انصهروا مع سكان المنطقة الذين لعبوا دورا بارزا في نشر مظاهر الحضارة العربية الإسلامية [16] .

و خلال انعقاد المؤتمر الإسلامي بتمنغاست بالجزائر ، ألقى العديد من الباحثين الجزائريين و الأجانب مداخلات هامة حول منطقة الهقار و معالم حضارة الصحراء و فندوا روايات المستكشفين الأوربيين لتاريخ المنطقة و أماطوا اللثام عن الكثير من المغالطات التاريخية[17]،و أن الاستعمار الفرنسي كانت له أسباب و دوافع حول الاهتمام بالصحراء الجزائرية.

ب- أسباب الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية

تعرضت القارة الإفريقية و الصحراء الكبرى لمنافسة حادة للقوي الاستعمارية الأوربية ، حيث عرفت توافد مجموعة من المستكشفين و المغامرين ، بهدف التعرف على كل ما يتعلق بهذه المناطق، ذلك أن الأوربيين عرفوا الصحراء الكبرى خلال العصور الوسطى وركزوا على التبادلات التجارية المزدهر القائمة ين تجار شمال إفريقيا و السودان الغربي، من خلال ما كتبه الرحالة المسلمون وجغرافييهم ، و المعلومات التي كانت تصلهم من تجار البندقية و الإمارات الايطالية [18] ،خاصة في عصر الكشوفات الجغرافية، فتعرفوا على طرقها و مسالكها و تتبعوا أيضا مجاري مياهها،و شجعوا على إرسال البعثات الاستكشافية و العلمية و المخباراتية لأخذ معلومات دقيقة عنها.

و قد اشتد التنافس الأوروبي على القارة الإفريقية في العصر الحديث بين الفرنسيين والإنجليز والألمان ، وذلك من أجل إيجاد أسواق لمختلف المنتجات الأوروبية، وإيجاد مجال لإسكان فائض السكان، و التنافس في مجال الدراسات العلمية،وتكونت لهذا الغرض عدة جمعيات جغرافية علمية أهمها:الجمعية الإفريقية African Association ، عام 1878 بإنجلترا ، وحددت أهداف علمية

وإنسانية بهدف معرفة الصحراء معرفة علمية و التوغل داخل القارة الإفريقية،و لهذه الظروف خشيت فرنسا من المنافسة الأوربية بهذه المناطق ، فلحقت بركب المتنافسين فحققت جزءا من مبتغاها عند احتلالها للجزائر، و توجهت جنوبا لاختراق الصحراء الجزائرية و ربطها ببعض المستعمرات التي نافست بها القوى الأوربية الأخرى عليها، بحصولها على أجزاء معتبرة من إفريقيا الغربية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر،و اعترف له مؤتمر برلين الاستعماري الأول سنة 1878 بتحقيق توسيع امبراطوريتها إلى تونس ثم برلين الثاني 1884 الخاص بتقسيم القارة الإفريقية، الذي منحها الغرب الإفريقي و صحاريه الشمالية بفضل سياسة التوسع لجول فيري" السابق ذكره [19]، ذو النزعة التوسعية ، فكانت الصحراء أبرز محطة في مخيال القادة العسكريين الفرنسيين ،بربط الجزائر الشمالية بالصحراء الكبرى ، للدوافع والاهتمامات التالية:

أ- التعرف على المناطق الواسعة جنوب الجزائر، حبا في روح الاستكشاف والتعرف على إمكاناتها الطبيعية و البشرية و الاقتصادية،حيث تطرق الدكتور يحي بوعزيز في بعض دراساته [20] لهذه الرحلات الاستكشافية منها: البعثات الاستكشافية التي مهدت للاستعمار الفرنسي لمنطقة الهقار و التاسيلي أمثال بعثات "هنري دوفيري" إلى بلاد المزاب و التوارق و"بيرتاردتانو"إلى جنوب طراباس وغدامس و إلى بلاد التوارق أزجير وتاسيلي و "دو"إلى عين صالح و تديكلت و"فلاترز" إلى بلاد الطوارق" وفردیناند فورو" و "لامي " و فلاماند "إلى عين صالح و تديكالت و"فيالات "التي هدفت اختراق الصحراء من تديكالت إلى النيجر عبر الهقار وبعثة" كورتي"التي جابت مناطق عديدة من الصحراء، و قد قامت هذه البعثات خدمات جليلة للجيوش الفرنسية المتوجهة نحو قلب الصحراء،بمعرفة طبوغرافية المنطقة ومناخها و تركيباتها القبلية و خصوصياتها السياسية والديموغرافية و الاجتماعية والاقتصادية ، من خلال دراسات الضباط الفرنسيين أمثال دوفيري و لاميو فورو الذين وصفوا عمق الصحراء و أهميتها الاستراتيجية بالنسبة لسياسة التوسع الفرنسي بالمنطقة [21].

و في إطار تربصنا العلمي بدور الأرشيف الفرنسية ،عثرنا على عدة علب بالمصلحة التاريخية لأرشيف "فانسان حول التتبع الكرونولوجي للحملات العسكرية المنطلقة من شمال الصحراء كالأغواط و بسكرة و وورقلة و واد سوف، حيث تمكنت القوات الفرنسية من السيطرة عليها بعد معارك مع أبطال المقاومة الجزائرية في هذه المناطق،و وضحت التقارير اليومية للفيالق الفرنسية المتجهة نحو الصحراء بوصف يومياتها و معاركها و مشاكل الطرق و عتادها و مئونتها ومراسلاتها للقيادات العسكريةفي شمال الجزائر [22] .

ب – أسباب اقتصاديه تمثلت في البحث عن الطرق التجارية بالصحراء الإفريقية الكبرى ،بالمدن التي احتلتها في شمال الصحراء الجزائرية كباتنة و بسكرة و الأغواط وورقلة ، و قام الضباط المكلفون بالغزو بوضع حاميات عسكرية ، وتعيين بعض الجزائريين الموالين لها على ادارة هذه المناطق بقيادة المكاتب العربية التي كان يشرف عليها الضباط الفرنسيون ،بمساعدة بعض المترجمين من الأهالي الجزائريين ، و كان لبعض المغامرين دور بارز في هذه المهمة أمثال "ديفو"و فلاترس" وغيرهم ، من خلال نشاط الحملات الفرنسية التي تمكنت من التحكم في هذه الطرق و القوافل التجارية ، حيث أولت تقارير ضباط الحملات في إطار مراسلاته لقادتهم على وجود طرق تجارية هامة يمكن الاعتماد عليها لاختراق الصحراء [23] ، و أيضا تشجيع المؤسسات و الجمعيات النشيطة في هذا المجال بعملية الاستكشاف و الاستثمار الاقتصادي [24] ،إضافة لذلك ففرنسا كانت تعاني من كساد اقتصادي ،نظرا لحاجاتها للمواد الأولية، و إيجاد مستعمراتها تتوفر على المعادن ، و يمكن الاستثمار فيها ، خاصة منذ عهد الإمبراطورية الثانية ، التي شجعت على الاستثمار في المجال العقاري في شمال الجزائر ، ثمّ توسعت في هذا المجال إلى الاستثمار المالي بالسماح لهجرة اصحاب رؤوس الأموال الضخمة ، مما شجع المستوطنون الفرنسيين بالتوجه نحو المناطق الجنوبية لتعميرها ، معتمدين على تسهيلات الضباط الفرنسيين و بناء الطرق و التفكير في مشاريع اقتصادية ضخمة [25].

و لذلك فكرت فرنسا بمشاريع اقتصادية ضخمة لربط مستعمراتها الجزائرية بالصحراء الكبرى، من خلال التفكير ببناء شبكة من طرقات السكك الحديدة العابرة للصحراء Transsaharien تمتد من مدن الشمال الجزائري كالجزائر العاصمة والبليدة و المحمدية نحو الواحات الجزائرية ، ومن ثمّ نحو عمق الصحراء و إفريقيا الغربية [26]، و فكرت أيضا في الشبكة المائية بمحاولتها شق بحر داخلي يربط تونس بالصحراء عن طريق الواحات الجزائرية [27]،و كانت فرنسا تتوخي من ذلك عدّة أهداف من بينها ربط شمال الجزائر بالمناطق الجنوبية [28] .

ج- أسباب أمنية : يظهر من خلال التقارير العديدة و المراسلات المتبادلة بين قادة الفيالق الفرنسية المخترقة للصحراء الجزائرية و مسؤوليهم السياسيين على مستوى الحكومة العامة و قادة النواحي العسكرية بوهران و قسنطينة ، من جهة وكذلك تلك المراسلات التي كانت تتم ما بين الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية و الحاكم العام في الجزائر ، كانت تصب معظمها في شقها الأمني و ضرورة التعاون ما بين جميع هذه الفرق لمطاردة قادة الثورات الجزائرية و القضاء عليها، ابتداءً من مقاومة الأمير عبد القادر، حيث افتك منه مناطق الواحات الوسطى كالأغواط و أيضا بسكرة و ورقلة ، و مطاردة أولاد سيدي الشيخ و المتوجهين نحو الإقليم الجنوبي الشرقي و التوغل بإقليم توات و انتزاعه من القبائل المتمردة و مطالب المملكة الشريفية بالمغرب الأقصى[29] ، و أيضا التوجه نحو الجنوب الشرقي بالأهقار وإقليم التبستي و عقد اتفاقية مع شيخ الطوارق، لفتح الطرق الصحراوية أمام القوات الفرنسية و حرية المبادلات التجارية و حماية سكان الجنوب من هجمات بعض القبائل المتمردة حسب زعم السلطات الفرنسية،من أجل توفير الأمن للفرنسيين الراغبين في التوجه نحو الجنوب لأعمال تجارية أو سياحية ، حيث قام الاستاذ المرحوم يحي بوعزيز بنشر نص هذه الاتفاقية في إحدى مقالاته[30].

و استخدمت فرنسا في تحقيق هذه الغاية عدة أساليب للقضاء على الثورات الجزائرية بالجنوب،من خلال الاعتماد على بعض القبائل الموالية لها و تكوين فرق من المجندين الجزائريين والمهاريست الذين يحسنون ترويض الجمال في الحرب،حيث

يوضح أحد التقارير [31]، الوضع الأمني بمنطقة الأهقار و دور هذه الفرق من المهاريست في ملاحقة الثوار.

4- **أسباب استراتيجية** :يتحدث التقرير السابق ذكره [32] عن اهتمامات القيادة العسكرية بالجنوب ، خاصة منطقة الهقار، حيث يوليها اهتماما بالغا ، بضرورة ربط المستعمرات الفرنسية بالساحل الإفريقي بجنوب الجزائر ، و التكفل بسكان هذه المناطق ،بالسماح لهم بالرعي في منطقة كيدال بمالي و تخفيض أعباء الضرائب المفروضة على الرعايا الفرنسيين بالجنوب الجزائري ، و يطلب هذا التقرير توضيحات حول المشاكل الأمنية القائمة على حدود المستعمرتين الفرنسيتين[33] .و لا يتأتى ذلك إلا بإيجاد قدم لفرنسا الاستعمارية بقلب القارة الإفريقية و التصدي للمنافسة الاستعمارية الأوربية ، خاصة الإيطالية على الحدود الجنوبية الشرقية، بمحاولة هذه الأخيرة التوسع بإقليم فزان و غدامس و كذلك روح التوسع عند البريطانيين شرق إفريقيا بالسودان الشرقي ، مما جعل فرنسا في مواجهة استعمارية شرسة مع منافسيها الأوربيين في التوغل بالصحراء الشرقية الجزائرية منذ القضاء على ثورة الزعاطشة ومن جهة أخرى مواجهة حركات المقاومة التارقية و الحركة السنوسية المتوحدتين وفق أسس إسلامية بضرورة محاربة الكافر الأجنبي.

3 - سياسة التوسع الفرنسي بالجنوب الشرقي الجزائري

أوردت تقارير الضباط الفرنسيين إلى قياداتهم العسكرية و السياسية ، أخبارا يومية و شهرية و سنوية حول تحركات القوات الفرنسية من شمال الصحراء الجزائرية نحو مناطق الواحات و أقصى الجنوب الشرقي للجزائر الذي أضحي يمثل في هذه المرحلة ، منطقة إستراتيجية بالغة الأهمية ، حيث نجد أحد التقارير يفصل لنا في إحدى الحملات العسكرية المتجهة نحو واحات توات ، انطلاقا من الجنوب الشرقي بعد بسط السيطرة الفرنسية على مدن بسكرة و ورقلة و واد سوف مركزا على مناطقها الشاسعة و قصورها الصحراوية[34].

و تقارير أخرى تناولت معلومات هامة حول بعض المهام العسكرية والعلمية المتوجهة نحو عمق الصحراء الجزائرية أمثال مهمتي "فليراند و فورو و لاميى

وغيرها كدوفيري Duveyrierوبول سولايي Paul Soleillet فلاتارس Flatters و غيرها من الحملات العسكرية الأخرى(35).

وقد كان لهذه الحملات أهدافا استعمارية، تصب كلها حول طبيعة السياسة التوسعية الفرنسية بالصحراء الجزائرية، انطلاقا من شمال الجزائر وصولا إلى مناطق أقصى الجنوب الشرقي، التي ركزت عليها التقارير الأرشيفية ، حيث ركزت التقارير المتواجدة بالمصلحة التاريخية للجيش البري الفرنسي على نوعية هذه الحملات وتوسعها بالصحراء الجزائرية ، مثلما ذكرنا سابقا ، أما وثائق مركز الأرشيف لما وراء البحر ، فهي تتناول بشكل دقيق و خاص طبيعة الحملات العسكرية و العمليات الأمنية التي قادتها فيالق و كتائب الجيش الفرنسي المتوغلة بعمق الصحراء الجزائرية مستخدمة أساليب الإبادة و الطرد في حق القبائل المقاومة لسياسة التوسع الفرنسي ، ذلك ما تعرفنا عليه من خلال وصف هذه التقارير للأوضاع الأمنية بالجنوب الشرقي لمسؤوليها العسكريين و السياسيين، موضحة لهم أهمية التوسع الفرنسي بالصحراء الجزائرية، و ضرورة التصدي لمقاومة قبائل الطوارق و إيجاد صيغ تفاهم بين الحاكمين العامين للجزائر و غرب فرنسا الإفريقي. وذلك بإعادة هيكلة هذا الإقليم و تنظيمه و توفير الأمن فيه من خلال بعض العيينات المتعلقة بأهمية احتلال الجنوب الجزائري كالآتي:

– تطرق أحد التقارير المرسلة من الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية إلى الحاكم العام في الجزائر(36)، لأحوال المنطقة الجنوبية للجزائر و مناطق غرب إفريقيا موضحا له، "بأنه سيذهب إلى "تومبوكتو"لتوسيع النفوذ الفرنسي شمال "النيجر"و أنه كلف أيضا بعض القادة العسكريين بالإشراف على التراب العسكري الأول الذي سبق لي شرحه لكم " و يواصل التقرير ساردا بعض المعطيات الاستراتيجية والعسكرية للمنطقة بتكليفه للضابط "روجي"Roujet مكان نائب العقيد "داجيرو" « dagéraud » و أخبره أيضا بتحسن الأوضاع السياسية للمنطقة الصحراء الكبرى بإشرافه الشخصي .

و نعتقد أن السياسة الاستعمارية المطبقة بالصحراء الكبرى ، واضحة من خلال هذه التقارير و المراسلات التي تؤكد ضرورة الحفاظ على الأمن و فرض السيادة الفرنسية و القيام بإجراءات سلمية Mesures Pacifique ،و حاولت القيادة العسكرية مسالمة سكان المناطق الجنوبية و التعبير لهم أن فرنسا تدافع عنهم وتريد لهم الخير من خلال اهتمامها بقضاياهم الاقتصادية ، ذلك ما ورد في تقرير أخر للملازم "ديبوميي Dépommier (37)"، قائد كتيبة "تديكالت "و ملحقة عين صالح ، الذي وضح في مراسلته ، بأن الأوضاع الاقتصادية متدهورة بمنطقة "أجار " و الهقار "بسبب الجفاف الذي ضرب المنطقة ، الذي تسبب عنه هلاك قطيع الحيوان وانخفاض الانتاج الزراعي و أيضا التكاليف الكبرى لقيمة الضرائب المفروضة على سكان المنطقة من أجل الرعي بالمناطق الجنوبية لإقليم "كيدال "وفق اتفاقية ميامي" النيجرية ، فالتقرير في نظرنا يحاول أن يشرح للقيادات العسكرية المكلفة بالتوسع في الصحراء الكبرى على أهمية ضبط الوضع الاقتصادي بهدف كبح روح التمرد عند قبائل المنطقة و توفير مناخ السلم في الصحراء Pacification du Sahara من أجل تثبيت السيادة الفرنسية على هذه المناطق ، كي لا تستغل من قبل حركات مناوئة من قبل القبائل غير الخاضعة للسيادة الفرنسية و أيضا الحركات الجهادية و الدينية الإسلامية المنتشرة في الصحراء الكبرى و التي تعمل على تحريض سكان الطوارق ضد السياسة الفرنسية مثل ما سيأتي ذكره لاحقا.

و يتناول تقرير أخر (38) إمكانية تحقيق الأمن من خلال إدراج سكان الصحراء من قبائل الشعامبة و الطوارق و التواتيين الخاضعين للسيادة الفرنسية في فرق أمنية خاصة، تساعد قوات الاحتلال العسكري الفرنسية بالجزائر و غرب إفريقيا على ضبط الأمن و فرض السيادة الفرنسية و إقرار السلم بإنشاء ما يسمى بشرطة الصحراء من الأهالي ، قاصدا بذلك عمليات التجنيد لسكان الجنوب الجزائري في الفرق الإضافية المتحركة لضمان الأمن شمال "تومبوكتو"، و اقترح السيد بونتي Ponty مشروعا يقضي في بدايته بتجنيد 50 من مهاريي الصحراء من الشعانبة في الشرطة المحلية بالسنغال و النيجر و تتطلب هذه العملية موافقة الحاكم العام للمستعمرة الجزائرية ، وحسب نفس التقرير فإن الضابط " موانيي" موافق على هذه العملية لأنها تجسد في

نظره ضبط الأمن بالصحراء الوسطى ،برد هجمات القبائل المعادية و أنه موافق أيضا على التعاون مع صاحب مشروع تجنيد الأهالي الجزائريين ضمن هذه الفرق؛ من أجل ضبط الأمن بالصحراء الجزائرية من إقليم توات إلى الأهقار و التاسيلي و التبستي ، وبالتالي فهذا التقرير يوضح لنا رغبة فرنسا في بسط سيطرتها الاستعمارية على الصحراء الجزائرية بهدف ربطها بالسودان الغربي الفرنسي .

و قد أكدّ تقرير أخر [39] مرفوع من قبل قائد فيلق فرنسي مرابط بالصحراء المدعو " منيي " Général Meynier ،قائد تراب الواحات الجزائرية إلى قائد ملحقة عين صالح ، أهمية شرطة الصحراء في الحفاظ على الأمن بهذه المناطق الشاسعة من الجنوب الشرقي وأبرز نفس التقرير ،ترتيبات تحرك القوات المتواجدة بالهقار المعروفة بمفرزة "الأجار" Ajjerالمتواجدة بهضبة "أدمار" Admer ، أنها ملزمة بأخذ الأوامر من الحكومة العامة بالجزائر ، و ذكر التقرير أيضا أن الكتيبة المتواجدة بعين صالح لا تلبي رغبات ضبط الأمن و التوسع في الصحراء و ذلك لنقص الإمكانات المالية و اللوجستيكية للحفاظ على الأمن بهذه المناطق الواسعة ولا يمكنها التحرك بالسرعة من منطقة توات إلى "الهقار" و "الأجار" بسبب بعد المسافة ، ويطلب الجنرال "منيي" من قائد الملحقة بعين صالح موافاته بتقرير حول تمركز القوات الفرنسية بالصحراء الوسطى بهدف استغلالها في المهمات القتالية ضد القبائل المتمردة في أقصى الجنوب الشرقي بالهقار و التبستي .

نستخلص من هذا التقرير، الواضح الغايات و الأبعاد ، أن القادة العسكريين كانوا في سباق مع الزمن لفرض السيادة الفرنسية على الصحراء الكبرى، بربط المستعمرات الفرنسية ببعضها البعض، و هو ما يمثل أيضا في نظرنا طبيعة السياسة الفرنسية المبنية على الاحتلال الشامل و إخضاع المناطق المحتلة بالقوة ،و استخدام جميع الأساليب الأخرى من تشجيع الاستيطان و إقامة المشاريع الاقتصادية و ربط المناطق بواسطة شق الطرق و إنشاء خطوط السكك الحديدة ، بل شبكة الملاحة البحرية و النهرية ، ولكن هذه المشاريع اصطدمت بمشاكل أمنية ، تمثلت في المقاومة

العنيفة التي أبداها سكان الصحراء وقبائلهم لسياسة التوسع الاستعماري في الصحراء الجزائرية خاصة بمنطقتي الهقار و التبستي .

4 – رد فعل الجزائريين على سياسة التوسع الفرنسي باعتراف تقارير الحملات العسكرية بالمنطقة

استطاعت الحملات العسكرية الفرنسية فرض السيطرة على مناطق عديدة بالصحراء الجزائرية ، لكن هذه الحملات لم تستطع احتلال الواحات الجزائرية إلا بعد مشقة و محاولات عديدة لضباط الفيالق الفرنسية و كتائبها لاصطدامها بمقاومات واحة الزعاطشة بقيادة الشيخ بوزيان سنة 1849 ، و لكن القوات الفرنسية تمكنت من حصار القرية و السيطرة عليها نهاية سنة 1849 بفضل التفوق العددي والعسكري لقوات الاحتلال و هو ما يعبر في نظرنا للروح القتالية و التحررية لدي سكان الصحراء في بداية عمليات التوسع الفرنسي نحو الصحراء الكبرى [40] ثمّ ثورات أخرى بالجنوب الشرقي و الأوسط من الصحراء الجزائرية التي تزعمها كل من ابن ناصر بن شهرة و الشريف محمد بن عبد الله في منطقة الأغواط سنة 1851 ، و امتدت الثورة إلى غاية ورقلة و واد سوف و لكن بسبب الخلافات بين قادة الثورة وموالاة بعض الأعيان الجزائريين وبعض زعماء أولاد سيدي الشيخ تمكنت فرنسا من احتلال هذه المدن و فرض سيطرتها العسكرية عليها[41].

و توالت الثورات بالقطر الجزائري المحتل خلال توسع القوات الفرنسية نحو الجنوب الغربي باصطدامها بثورة أولاد سيدي الشيخ عام 1864 بسبب سياسة قادة المكاتب العربية التي ارهقت السكان بالضرائب و مصادرة أراضيهم و محاولات ضرب قادة و أعيان المنطقة ببعضهم ببعض، مما جعل قبائل أولاد سيدي الشيخ ينتفضون بقيادة الباشاغا سي سليمان و عمه سي الأعلى بورقلة و مهاجمة الحاميات الفرنسية. و في بداية شهر أبريل من نفس السنة ، أعلن الجهاد ضد الكفار الفرنسيين حسب الرسالة التي وجهها لشيخ القبائل و أعيانهم من البيض غربا إلى ورقلة شرقا وبلاد المزاب ، حيث استجاب سكان هذه المناطق لهذه الثورة التي أزعجت الفرنسيين ، رغم مقتل زعيم الثورة الأول سي سليمان إلا أن القبائل بايعت أخاه "سي

محمد ابن حمزة شقيقه ، لتندلع ثورة أخرى بقيادة إحدى فرق اولاد سيدي الشيخ بقيادة الشيخ "بوعمامة" سنة 1881،الذي هدد المصالح الفرنسية بالجنوب الغربي ليخفف الضغط على مقاومة الجزائريين بالجنوب الشرقي [42].

و سوف نحاول أن نستقرأ مرّة أخرى التقارير الفرنسية المتعلقة باحتلال منطقة الأهقار و التبستي

و مقاومة سكان هذه المنطقة لسياسة التوسع الفرنسي ،حيث كانت الحكومة الفرنسية واعية بالمخاطر التي تنتظرها بهذه المناطق الواسعة ، لذلك حاولت في بداية التوغل بهذه المناطق تبني سياسة مسالمة اتجاه زعماء الطوارق بهدف ربح موالاتهم ، فعقدت مع أحد زعمائهم المعروف بالشيخ "إيخنوخن "في 26 – 11 – 1862 معاهدة "غدامس ، هذه المدينة التي تقع على الحدود الجزائرية الليبية ، بهدف توفير الحماية للفرنسيين و التقرب من طوارق الصحراء الكبرى بفضل دعاية الراهب " دي فكو" [43]الذي اتجه في ما بعد إلى بلدة تمنغاست في أقصى الجنوب الشرق الجزائري، إلى غاية مقتله من قبل مجموعة من الطوارق سنة 1916،حيث شهدت هذه المنطقة المقاومة معارك عديدة بين ثوار الطوارق و القوات الفرنسية الغازية ،

و من أبرزها حسب العديد و الدراسات في ما يلي[44] :

– مواجهة حملة "فلاترس"الثانية و القضاء على كتيبته العسكرية بتاريخ 15 – 02 – 1881 بالتصدي لها من قبل زعيم الطوارق السيد "آهيتغال آق محمد بسكة بن الحاج البكري الذي توفى في نفس سنة هزيمة حملة فلاترس "، لكن تولى بعد قائد أخر يدعى ب"الأمينو كال **موسى آق مستان** الذي تعاون مع بعض القادة الفرنسيين المقتحمين للهقار.

– معركة أزجير ضد حملة "فورو لامي "في 12– 11 –1900

– معركة جنات في بداية القرن العشرين عقب دخول الفرنسيين عين صالح

– معركة تيت 1902 ضد قوات الضابط "كوتنيس " Cottens و معركة تمنغاست ضد حملات الضابطين لابرين و دوفوكو سنة 1904

– معركة إيليزي 1908، وبحلول الحرب العالمية الأولى ازدادت قوّة المعارك بين الثوار التارقيين

و القوات الفرنسية بتشجيع من طوارق الصحراء الكبرى و الحركة السنوسية ، حيث شهدت المنطقة خلال الحرب العالمية الأولى معارك شرسة بين ثوار المنطقة والقوات الفرنسية إلى غاية نهاية هذه الحرب، بفعل تداخل عوامل خارجية في إطار المواجهة بين تركيا – ألمانيا ضد إيطاليا التي احتلت طرابلس الغرب و الوقوف في وجه المصالح الفرنسية بالسودان الغربي .

هذه المعارك الكبرى التي وقت في التراب الجنوبي للجزائر ، تحدثت عنها التقارير الأرشيفية، و التي هي عبارة عن مراسلات بين الضباط الفرنسيين وقياداتهم العسكرية و السياسية ، تصف فيها الأحداث و الفاعلين فيها ، و بذلك فهي شهادات حية وموثقة في الأرشيف الاستعماري الفرنسي ، حيث سنقتصر في قراءة بعضها المتعلق بموضوع دراستنا :

– حاول أحد هذه التقارير[45] إعطائنا صورة حية حول العلاقات الاستراتيجية بين المستعمرتين الجزائرية و السودانية ، من خلال مراسلة القائد العسكري لمنطقة وهران برتبة جنرال ، إلى قائد الفرقة التاسعة عشر للجيش الفرنسي بالصحراء ، يستعلم منه الأحداث الجارية بأقصى الجنوب الجزائري ، ومدى فعاليات القوات الفرنسية المتواجدة بالمنطقة و يستفسر منه أيضا، مدى خضوع قبائل "أوليماندان" التارقية بالسودان الشمالي حول خضوعها لسلطات غرب إفريقيا ، أم لا زالت ثائرة ويطلب توضيحات عن الفروع المستسلمة من قبائل تايتوقس "Taitogs و كونتا وبرابيش المتواجدين بأدرار تيميساوو Timissao ، ولا شك أن هذا التقرير، يؤكد لنا على أهمية اهتمام القيادة العسكرية المحلية في الجزائر بالتوجه إلى الاحتلال الشامل للصحراء الكبرى و ربط الجنوب الجزائري بالسودان الغربي .

– و في إطار إحكام السيطرة العسكرية على الصحراء الجزائرية ، ورد في تقرير من الجنرال " ليفي " Levé، قائد منطقة عين الصفراء إلى الحاكم العام للجزائر[46]، عن الأوضاع الأمنية للمنطقة بمعاودة قبائل الصحراء في الجنوب الغربي ، وتحركاتها

ومقاومتها للتوسع الفرنسي ، بالتنسيق مع مقاومة بلاد الطوارق بالصحراء الجزائرية بالهقار و الطاسيلي .

– تقرير الضابط بيتاماورغ Bettembourg [47] من المشاة الاستعمارية بالفرقة المتنقلة بالهقار و تديكالت إلى قائد القوات الواحات ورقلة يوم 11 جويلية 1914 يعلم فيها إنجاز مشروع التنظيم العسكري لغرب إفريقيا الفرنسي (AOF) بتوحيد التنسيق بين مهاريي الجزائر و إفريقيا الغربية ضد هجمات القبائل المعادية المغربية،حيث نستشف من هذا التقرير تخوف السلطات الاستعمارية من تحالف القبائل الثائرة في الصحراء الجزائرية مع المملكة الشريفية غربا و الحركة السنوسية شرقا في تحالف مقدس ضد الصلبيين الجدد ، أو ما كان يطلق عليه" الجهاد الإسلامي المقدس ضد الكفار ".

– و في تقرير أخر عن مقاومة سكان منطقة التاسيلي بجنات [48]، يتحدث عن هجمات قبائل "الأجار" Ajjer على القوات الفرنسية المرابطة بالتاسيلي بجبل"تانتانو"Tantano و يربطها بقبائل "التبو" التارغية أو رعاة البقر مثل ما يصفهم التقرير ، و يتضح من نص هذا التقرير أن القوات الاستعمارية تريد التضييق على هذه القبائل و منعها من الاحتكاك بطوارق الجنوب الجزائري خوفا من ثوراتهم و رفضهم للسيادة الفرنسية، حيث باتوا يشكلون خطرا على المستعمرات الفرنسية بشمال السودان على الحدود التشادية – اللبية.

– و في إطار عمليات التنسيق الأمني بين قيادتي المستعمرتين بغرب إفريقيا وجنوب الجزائر، يسرد تقرير أخر[49]مرسل من الحاكم العام في الجزائر إلى وزارات الحرب والداخلية والمستعمرات، الأوضاع الأمنية بأقصى الجنوب الشرقي للجزائر من منطقة "تبو" بشمال التشاد إلى الهقار، موضحا توغل قبائل "التبو" بجنوب الجزائر ، ممارسين عمليات الغزو و الخطف ، حسب نص التقرير ، حيث يطلب الحاكم العام من قيادته العليا بضرورة الانتهاء من احتلال "جنات" ووضع حامية عسكرية مهمتها التصدي لهذه القبائل المقاومة؛ و يطالب أيضا بالقيام بالتنسيق بين القوات الفرنسية في الصحراء و قوات غرب إفريقيا ، و تعليقا على هذا التقرير، فإن فرنسا الاستعمارية

هي من مارست القمع و القتل و مطاردة الثوار و دفعهم إلى تبني سياسة الدفاع عن النفس و التحالف مع الحركات المقاومة الأخرى و فرضت عليهم خيار المقاومة والجهاد و الوقوف إلى جانب الحركة السنوسية الرافضة لسياسة التوسع الاستعماري الأوربي[50].

– و تتحدث تقارير أخرى [51] عن مراسلات بين الحاكم العام للسودان الغربي (إفريقيا الغربية الفرنسية) و الحاكم العام للجزائر عن هجمات قام بها مسلحون طوارق على المواقع الفرنسية بأقاديس" Agades شمال التراب العسكري الفرنسي بالنيجر و حاصرو الحامية الفرنسية المرابطة بالمنطقة في غياب قائدها العسكري الضابط "كلوزيل "الموجود بموريتانيا ، و أن المدينة من وجهة هذا التقرير محاصرة منذ مدّة و أن الحاكم العام لغرب إفريقيا اتخذ جميع الإجراءات لصد هذا الهجوم الكثيف المدعم بتأييد قوات تركية و ألمانية ، و يطالب مساعدات القوات البريطانية المرابطة بنيجيريا ، و هو ما نفهم منه أن المنطقة دخلت في صراع دولي بين دول الحلف الثلاثي و دول الوفاق الثلاثي، لكن حركات المقاومة التارقية بمؤازرة مجاهدي الحركة السنوسية ، هاجموا القوات الفرنسية بمناطق الهقار و التاسيلي والتبستي، المتأثرين بمبادئ الحركة السنوسية .

و حاول تقرير أخر ، خاص بالاستعلامات الفرنسية [52] ، تتبع حركات المقاومة الاسلامية ، ناسبا إياه للدعاية التركية و الجامعة الاسلامية و حلفائهما الألمان، و هو ما نلمسه في هذه الفترة ، حيث تجري أطوار الحرب العالمية الأولى ،التي امتدت من أوربا نحو الشمال الأفريقي و المستعمرات الأوربية بالقارة الإفريقية وبذلك فسكان المناطق الصحراوية بالجنوب الشرقي الجزائري واجهوا آلة الاستعمار الفرنسية التدميرية لهويتهم و شخصيتهم التارقية بروح من الجهاد و المقاومة الباسلة لفترة طويلة .

خلاصة تقييمية عن أهمية هذه الوثائق الأرشيفية في الدراسات التاريخية

نستخلص من خلال قراءتنا المتواضعة لهذه التقارير الفرنسية ،بشاعة السياسة الفرنسية ، المتمثلة في التوسع الاستعماري بالصحراء الجزائرية على حساب كرامة

سكان الصحراء؛ بمحاولة فرنسا إدماجهم في الإمبراطورية الفرنسية بالساحل الإفريقي في إطار المنافسة الاستعمارية العالمية على استغلال شعوب المنطقة ، و محاولة فصلهم عن الإقليم الشمالي للجزائر ، و بالتالي فهذه الوثائق الأرشيفية المتمثلة في تقارير استخباراتية و استعلاماتية، كانت في حينها سرية للغاية، لا يطلع عليها أحد سوى صانعي القرار الاستعماري الفرنسي ، الذين كانوا يهدفون إلى تجسيد مبدأ التوسع الاستعماري على حساب هذه الشعوب ،مما يجعلنا اليوم كباحثين عن جزء من الحقيقة التاريخية، نكتشف طبيعة السياسة الاستعمارية الفرنسية خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين .

فهذه الوثائق توضح لنا بشكل دقيق، كبر مساحة هذه المنطقة و أهميتها الاستراتيجية ،بالنسبة لقادة الفيالق و الكتائب العسكرية الفرنسية ، التي استغلت المعلومات التاريخية و العلمية للرحالة الأوربيين المكتشفين للخصائص الطبيعية و الديموغرافية لهذه المنطقة ، و بالتالي ففرنسا الاستعمارية ، بررت جرائم القتل و اغتصاب الأراضي و التوسع على حساب ساكنة الصحراء الجزائرية؛ معللة ذلك بضرورة نشر الأمن و التنسيق بين حكام المستعمرات الفرنسية و محاربة القبائل المتمردة بالصحراء الكبرى، و لكنها في نظرنا لم تحاول فهم الروح التحررية التي اكتسبها سكان مناطق الأهجار و التاسيلي و التبستي مثلا من أقصى شرق الصحراء ، التي لازالت ماثلة أمامنا اليوم في رفض سكان الصحراء الكبرى التدخل الدول الكبرى في شؤونها [54].

إن هذه الوثائق الأرشيفية، تبين لنا أيضا الأهمية التي كانت تكتسبها منطقة الصحراء و الدور الحضاري و الإنساني لسكان هذه المناطق ، و الروح التحررية لسكانها المدافعين عن شرفهم و تراب أجدادهم و حبهم للحرية و عدم الخضوع للحكم الأجنبي ، و ما نلاحظه اليوم من تشبث هؤلاء السكان بهويتهم الثقافية واللغوية و احتفاظهم بتقاليدهم و عاداتهم و رفضهم للتدخل الأجنبي مرّة ثانية والاستفادة من أخطاء التاريخ ، لتظل هذه المنطقة وفية لجهاد قادتها و زعمائهم أمثال الشيخ "آمود بن المختار" الذي قاوم الاستعمار لمدة طويلة، وتحافظ كذلك على

استقلال دولها و ضرورة التعاون و التنسيق بين قادة هذه الدول ، لا كما ذكرت التقارير الأرشيفية الاستعمارية على خنوع بعض القبائل و تعاون البعض الأخر أمثال "الأمينو كال موسى آق مستان"مع الضابط الفرنسي "نديلك " Nédelec و التوسع في هذه المناطق باستخدام جميع الأساليب غير الحضارية [55].

و أن هذه الوثائق الهامة التي عثرنا عليها ضمن ركام أرشيفي ، تعكس لنا أيضا استراتيجيه التوسع الاستعمارية في بلادنا خلال الفترة الأولى من الاحتلال ، بتبني فرنسا سياسة توسعية لأقصى حد ممكن من أجل ضبط الأمن بالقسم الشمالي من الجزائري و إخضاعها بالقوة و تدمير البنية التحتية للقبائل المقاومة.

و في الأخير، فهذه الوثائق السرية للغاية في حينها ، كانت تقارير دقيقة ، وضحت بين سطورها معلومات تاريخية ، أماطت اللثام عن الكثير مما خفي عن أهداف الاستراتيجية الفرنسية في صحرائنا الكبرى من جهة ، وقدمت لنا إجابة عن إشكالية الحركة التاريخية لماضي هذه الشعوب ،لنستلهم منها العبر و الدروس، من أجل ربح معركة التاريخ ،لضمان مستقبل زاهر للصحراء الكبرى.

وحاولنا من خلال هذه الوثائق فهم جزء من الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية في توسعها بالصحراء الجزائرية والإفريقية بشكل عام و منطقة الجنوب الشرقي للجزائر منذ احتلال واحة الزعاطشة و بسكرة و واد سوف و غرداية إلى غاية الهقار و الطاسيلي والتبستي ، وتظل الوثائق التي قمنا بقراءتها ودراستها حسب وجهة نظرنا، مصدرا حيا لسياسة التوسع الاستعماري الفرسي بالجنوب الجزائري من أجل فهم طبيعة السياسة الاستعمارية المبنية على محاولات إبعاد ساكنة هذه المنطقة عن شمال الجزائر و فرض حلولا تناسب الاستراتيجية الاستعمارية لفرنسا في الصحراء الجزائرية .

الهوامش والإحالات:

1 – G.G.A , Peyermhoff, Résultat de la colonisation Officiel de 1871–1899, Alger PP 28–31

2 – دحو فغرور:" جول فيري مهندس الإمبراطورية الفرنسية "مجلة عصور الجديدة ، تصدر عن مختبر البحث التاريخي ، تاريخ الجزائر ، جامعة وعران ، الجزائر ، العدد 01 ،2011 ، ص ص 111– 122

3 – E ,Pélissier ,Annales Algériennes ed ,Anselinet gautier , librairie pour L'Art Militaire ,paris 1836 TI ,PP 50–58

4 – Félix jacquot ,Expédition du général Cavaignac dans le sahara Algérien , Avril –Mai 1847, Paris 1849 , Préface

5 – Archives Nationale D'outre mer (ANOM), Boite 28 H /2 , journal, les Annales 1913,description générale du sahara Africain 25–12 – Coloniales

6– Goudraay , Relations Commerciales de Tlemcen Avec le sahara et le Soudan in 3 bull.Soc . géo. Alger–1887, P 231

و انظر أيضا :

– يحي بوعزيز : "طرق القوافل و الأسواق التجارية بالصحراء الكبرى ، كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر "مجاة الثقافة تصدرها وزارة ال'لام و الثقافة ، العدد 59 ، 1980 صص 14 –30

– ابراهيم مياسي ، من قضايا تاريخ الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 2007، صص93 –97

7 – Daumas , Mœurs et Coutumes de L'Algérie , Tell , Kabylie , Sahara librairie de C .hachette et Cie 1853 pp 237 – 242

و تناولت باحثة جزائرية مؤلف الصحراء لدوماس بشكل مفصلة وقدمّت لنا قراءة عنه موضحة تفصيل هذه الدراسة حول الصحراء الجزائرية بخصوصياتها الطبيعية المختلفة و البشري و التاريخية :

– هرباش زاجية :" الصحراء الجزائرية في كتابات المستشرقين الفرنسيين ، دوماس أنموذجا " مجلة عصور الجديدة يصدرها مختبر البحث التاريخي، تاريخ الجزائر ، جامعة وهران العدد 06 ، صيف 2012 ، ص ص 29 – 40

8 – احميدة عميراوي و أخرون ، السياسة الاستعمارية في الصحراء الجزائرية 1844 – 1916 ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ص ص ، 10 –16

و انظر أيضا : – ابراهيم مياسي الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1857 – 1934 ،دار هومة ، 2005، صص 13 14

9 – آمال هاشمي : " التوسع الفرنسي نحو منطقة الهقار "مجلة عصور ، يصدرها مخبر البحث التاريخي بجامعة وهران ، العدد 18 –19 جانفي – ديسمبر 2012 ص ص 261 –283

10 – مزاحم علاوي محمد الشاهري " حضارة الصحراء الكبرى من خلال مصادر العصر الوسيط "مجلة عصور الجيدة ...العدد 05 ربيع 2012ص ص 115 – 130

11– Daumas , Op cit p p 360 – 367

12 – المهدي البوعبدلي:" لقطات من تاريخ منطقة الهجار في المجالات الثقافية والحضارية و السياسية " مجلة الأصالة ، المجلد 21 ، العدد 72 وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف 2011 ، ص ص 2 – 17 و قارن مزاحم علاوي محمد الشاهري، مرجع سابق ص ص 119 –120 و آمال هاشم، مرجع سابق ، ص 262

13– ANOM ,Boit N° 28 H /2 Annales ...op cit

14 – محمد بليل ، تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر و انعكاساتها على الجزائريين 1881-1914،.... دار سنجاق للكتاب ،الجزائر 2013 بتدعيم وزارة الثقافة الجزائرية بمناسبة الذكرى الخمسون للاستقلال ، ص 40

15- Archives Nationale D'outre mer (ANOM), Boite 28 H /2,Etude Historique de la Région Tibesti et Tribus de Tebou

16 – نعيم قداح ، حضارة الإسلام و حضارة أوربا في إفريقيا الغربية ،ط 2 ، المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1975 صص 139-142و انظر أيضا : محمد بليل :" دور القبائل العربية في مدّ الجسور الحضارية بين الصحراء الكبرى وحواضر المغرب الإسلامي ما بين القرنين الثاني و الثامن الهجريين في إطار الملتقى المشترك بين جامعتي أدرار و تيارت ، منشورات قسم التاريخ جامعة أدرار ، أفريل 2009

17– انظر مجموعة من المقالات نشرت في مجلة الأصالة ، تصدر عن وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف في الجزائر المجلد 21 ، العدد 72 :

– عبد الرحمان الجيلالي :" هؤلاء التوارق الملثمين " صص 35

– المهدي البوعبدلي ، مرجع سابق صص 2 – 17

– يحي بوعزيز:" اهتمامات الفرنسيين بالتوارق و منطقة العقار من خلال ما كتبوه صص 51 -62

قارن– محمد الميلي : " نماذج من تشويه بعض المؤرخين الأجانب لتاريخ الجزائر ، مجلة الأصالة ، تصدر عن وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف ، تلمسان ، عاصمة الثقافة الإسلامية ، 2011 ، المجلد 05 ، العددين 14 -15

18 – بوباية :" دور الرحالة و المستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية " مجلة عصور ، تصدر عن مخبر البحث التاريخي مصادر و تراجم ، بجامعة

وهران ، العدد 4-5 1424- 1425 ه الوافق ل ديسمبر 2003 – جوان 2004، 169-180

19- Henri Brasselard ; les Deux missions de flaters Au Pays du touareg Azjer et Hoggar,2eme Edition ,Librairie furie Jouvet cie ,Paris 1889 pp2-3

و أيضا دحو فغرور:" "جول فيري مهندس الأمبراطورية الفرنسية "مجلة عصور الجديدة ، تصدر عن مختبر البحث التاريخي ، تاريخ الجزائر ، جامعة وعران ، الجزائر ، العدد 01 ،2011 ، ص ص 111- 122

20- يحيى بوعزيز ،الاهتمام الفرنسيين بالتوارق و منطقة الهقار من خلال ما كتبوه"مجلة الأصالة ، مرجع سابق ،صص 51- 68

21- Henri Brasselard , op cit P4 وأيضا يحي بوعزيز:" الاهتمام الفرنسيين بالتوارق و منطقة الهقار من خلال ما كتبوه"مجلة الأصالة ، مرجع سابق ،صص 51- 68

22- انظر تقارير يوميات الحملات الفرنسية الأغواط و واد سوف :

- Service historique de L'armée de terre , Vincennes,(Shat) Boite N° 1H/215 journal des Marches de la colonne mobile de Laghouat 25 mars – mai 1866 et Tourné dans le Sud du général Conteret mars 1874

23 – Shat ,Boite N° 1H/998 Occupation Oaisis et des Projets des Chemins de transsaharien 1879 -1901

24 – Paul Solullit, L'Afrique Occidentale ,Algérie , M'zab ,Tildikelt ; Avignon ,1877 et Henri Brasslard p p 108 -114

Cf- Mission Flaters Au Pays Touareg, Azjer et Hoggar , Paris 1889, p p 199 -204

25 – احميدة عميراوي ، مرجع سابق ، ص17

26- André Martel « Pour Une Histoire Du Sahara Français » , in Revue Française d'outre Mer, tome 55 , N° 200 3eme trimesrte1968 , PP 335-351

27 – يحي بوعزيز ، اهتمامات الفرنسيين بالتوارق ، مرجع سابق صص 51-،68

28 – محمد علي القوزي ، في تاريخ إفريقيا الحديث و المعاصر دار النهضة العربية ط 1، بيروت لبنان ، 2006 ، ص ص 55 -60

29 – انظر مجموعة من التقارير بارشيف فانسان بباريس :

Shat , Vincennes, Boite N° 1H/1026 Projet d'Expédition du Sahal 1882- 1892

Ibid Boit N° 1H/1028 Situation Politique des Tribus de Touat

30 – انظر يحي بوعزيز :" طرق القوافل و الأسواق التجارية بالصحراء الكبرى "في مجلة الثقافة ، مرجع سابق، ص ص 13 – 30

ANOM , Boite 28 H /2 Rapport Annuel 1913 Annexe de Ain

31 – Saleh

32- Ibid

33 - SHAT , Vincennes , Boite 1H / 1020,Correspondance Concernant des affaires Indigènes , Mouvements Insurrectionnels …1879 – 1901

Et Boite 1/H 1068 , Rapports sur la Situation des Algéros – Tripolitaines et les territoires du Sud

34- ibid ,1H/998 , Affaire du Touat ...Occupation des Oasis ...Réalisation du Chemin de Fer Ain Sefra

35- Shat, 1H/1030 Mission , et 1H /1029 Misssion Fléraud Foureau et Lamy

36 - Anom , Boite 28H/2 Correspondance entre Gouverneur Général du AOF AU Gouverneur Général de L'Algérie du 20 Décembre 1903

37 – Ibid, Rapport du chef de Commandement du Oasis de Touat

38 – Ibid, correspondance du général Moinier chef du19 em Bataillon Au Gouverneur D'Algérie le 19 Mai 1914

39 – ibid, correspondance du général Meynier chef militaire des Oasis au Capitaine chef du Annexe de Ain Salah

40 - انظر عيسى جعنيط :" مقاومة سكان الواحات للاحتلال الفرنسي في القرن 19-ثورة الزعاطشة 1849 – أسبابها – تطوراتها " مجلة الدراسات التاريخية ، تصدر عن معهد التاريخ ، جامعة الجزائر العدد التاسع 1415 ه-1995 م ص ص 141-149

و أيضا – اسماعيل العربي :"الترتيبات التكتيكية لحصار قرية الزعاطشة أكتوبر – نوفمبر 1849" مجلة الدراسات التاريخية ، تصدر عن معهد التاريخ ، جامعة الجزائر العدد التاسع 1415 ه-1995 م ص ص 151-163

41 – إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية .، مرجع سابق صص 109 -124

42 – يحي بوعزيز : "أضواء على ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864 – 1881)" مجلة الدراسات التاريخية ، تصدر عن معهد التاريخ ، جامعة الجزائر العدد التاسع 1415 ه-1995 م ص ص 173 – 227

43- ANOM boite N° 28h /2 correspondance entre les chefs Militaires du sud algérien avec le Gouverneur Général de L'Algérie

44 -انظر مجموعة من المراجع تناولت هذه المعارك و الهجمات المتبادلة بين ثوار الطوارق و الجيوش الفرنسية : – احميدة عمراوي و آخرون ، مرجع سابق ، ص ص 53 -54

– آمال هاشمي ، مرجع سابق ص ص 266 -267

-إبراهيم مياسي ، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية مرجع سابق 513 -560

45 - ANOM Boit 28 H/ 2 Correspondance du général chef de la Région D'Oran Au Général du 19 EM Bataillon du Sahara le 21-08 1903

46 - ANOM Boit 28 H/2 , Rapport du général Levé Au G.G.A le 14 – 02- 1914

47 – Ibid boite 28H/2 Evénements du Sud Algérien

48 – Ibid boite 28H/2,Rapport Du G. G. A, Adressé Au Ministère du Guerre et L'Intérieur – des Colonies du 13 Avril 1912

49- :قارن Shat , boit N° 1H/1073Suite de L'Attaque du Djanet ,31

50 – ibid Boite N° 28 H/ 2 Correspondance entre Gouverneur Général et Ministre des Colonies 23-12-1916

51 – Ibid, Boite N° 29H/35 ,la situation Politique et du Propagande Turc – Islamique le Cair du 29 -09 -2010 et 03 -07 - 1920

52- ibid

53 - André Martel,op cit

54- Helene Claut – Haward : « Ia question Touarègue Quel Enjeux ? »in La guerre au Mali. Comprendre la crise au Sahel et au Sahara : enjeux et zones d'ombre(Galy M. et Badie B., éds), Editions La Découverte, Paris, 2013, 125-147

55 – يحي بوعزيز : " اهتمامات الفرنسيين بالتوارق "مرجع سابق .